{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} * {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا} * {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(1-3)

قوله تعالى {إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ و الفتحُ} أما النصر فهو المعونة مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها و منع من قحطها، قال الشاعر:

إذا انسلَخَ الشهرُ الحرامُ فَودِّعي بلادَ تميمٍ و انْصُري أرضَ عامِرِ

و في المعنيّ بهذا النصر قولان:

أحدهما: نصر الرسول على قريش، قاله الطبري.

الثاني: نصره على كل من قاتله من أعدائه، فإن عاقبة النصر كانت له.

و قيل: إذا جاء نصره بإظهاره إياك على أعدائك، و الفتح: فتحه مكة و قيل المراد حين نصر الله المؤمنين و فتح مكة و سائر البلاد عليهم. و إنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزًا للإشعار بأن المقدرات متوجهة حين إلى أوقاتها المعينة لها، فتعرف منها شيئًا فشيئًا، و قد قرب النصر من قوته فكن مترقبًا لوروده مستعدًا لشكره.

و في هذا الفتح قولان:

أحدهما: فتح مكة، قاله الحسن و مجاهد.

الثاني: فتح المدائن و القصور، قاله ابن عباس و ابن جبير، و قيل ما فتحه عليه من العلوم.

{و رأيْتَ الناسَ يَدْخُلون في دِيْنِ اللهِ أَفْواجًا} فيهم قولان:

أحدهما: أنهم أهل اليمن، و روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: **"الدين يمانٍ و الفقه يمانٍ و الحكمة يمانية"** و روي عنه عليه السلام أنه قال: **"إني لأجد نَفَس ربكم مِن قِبل اليمن"** و فيه تأويلان:

أحدهما: أنه الفرج لتتابع إسلامهم أفواجًا.

الثاني: معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه بأهل اليمن، و هم الأنصار.

القول الثاني: أنهم سائر الأمم الذين دخلوا في الإسلام، قاله محمد بن كعب.

و قال الحسن: لما فتح الله على رسوله مكة، قالت العرب بعضهم لبعض: أيها القوم ليس لكم به و لا بالقوم يد، فجعلوا يدخلون في دين الله أفواجًا أمة أمة.

قال الضحاك: و الأمة أربعون رجلاً، و قال ابن عباس: الأفواج "الزمر"، و قال الكلبي: الأفواج القبائل.

و روى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"إنّ الناس دخلوا في دين الله أفواجًا و سيخرجون أفواجًا".**

"أفواجًا" جماعات كثيفة كأهل مكة و الطائف و اليمن و هوازن و قبائل سائر العرب.

"يدخلون" حال، على أن "رأيت" بمعنى أبصرت، أو مفعول ثان على أن رأيت بمعنى علمت.

{فسبّحْ بحْمد ربِّك و اسْتَغْفِره إنه كان توّابًا} في أمره بهذا التسبيح و الاستغفار وجهان: أحدهما: أنه أراد بالتسبيح الصلاة، قاله ابن عباس، و بالاستغفار مداومة الذكر.

الثاني: أنه أراد صريح التسبيح، الذي هو التنزيه و الاستغفار من الذنوب.

روت عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه الآية يكثر أن يقول: سبحانك اللهم و بحمدك، أستغفرك و أتوب إليك، فقلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها؟ فقال:

"جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها"

و في قوله {إنه كان توّابًا} وجهان:

أحدهما: قابل التوبة.

و الثاني: متجاوز عن الصغائر.

و في أمره بهذا بعد النصر و الفتح وجهان:

أحدهما: ليكون ذلك منه شكرًا لله تعالى على نعمه، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر.

الثاني: أنه نعى إليه نفسه، ليجد في عمله.

قال ابن عباس: و داعٌ من الله، و وداعٌ من الدنيا، فلم يعش بعدها إلا سنتين مستديماً التسبيح و الاستغفار كما أُمِرَ، و كان قد لبث أربعين سنة لم يوح إليه، و رأى رؤيا النبوة سنتين، و مات في شهر ربيع الأول و فيه هاجر.

و قال مقاتل: نزلت هذه السورة بعد فتح الطائف، و الفتح فتح مكة، و الناس أهل اليمن، و هي آية موت النبي صلى الله عليه و سلم فلما نزلت قرأها على أبي بكر و عمر ففرحا بالنصر و بدخول الناس أفواجًا في دين الله عز و جل، و سمعها العباس فبكى، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: **"ما يبكيك يا عم؟"** فقال: نعيت إليك نفسك، قال: **"إنه لكما تقول"**.

و هذه السورة تسمى التوديع، عاش النبي بعدها حولاً على قول مقاتل، و حولين على قول ابن عباس، ثم حج رسول الله صلى الله عليه و سلم من قابل، فنزل {اليوم أكملت لكم دينكم} الآية، فعاش بعدها ثمانين يومًا، ثم نزلت "لقد جاءكم رسول"فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا، ثم نزلت {و اتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله} فعاش بعدها واحدًا و عشرين يومًا.

و قال مقاتل: عاش بعدها سبعة أيام، و الله أعلم و صلوات الله عليه متتابعة لا تنقطع على مر الأزمان و كر الأوان، و على جميع الأنبياء و المرسلين.